

حجة الوداع وبناء الأمة ﷺ وصايا نبوية ترسم طريق المسلم والمجتمع



الجمعة 2 أكتوبر 2026 05:00 م

بلغت الأمة الإسلامية في السنة العاشرة للهجرة مرحلة متقدمة من النضج والبناء، بعدما وسّع النبي ﷺ دائرة التلقي المباشر، فاستقبل الوفود، واجتمع بالمسلمين في حجة الوداع، ليضع أمامهم قواعد جامعة تحفظ الدين وتصون المجتمع وتحدد طريق الأمة بعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وجاءت وصايا حجة الوداع بمنزلة منهج متكامل لتربية الفرد والمجتمع؛ فدعت إلى قطع الصلة بالجاهلية، والحذر من الذنوب، وصيانة الدماء والأموال والأعراض، ونصرة الضعفاء، وتحقيق المساواة، والالتزام بالحق، والاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قطع الصلة بالجاهلية

حرص النبي ﷺ على أن يبدأ بناء المجتمع المسلم بإغلاق أبواب الجاهلية القديمة، فلا يعود المسلم بعد أن هداه الله إلى الإسلام أسيرًا لثاراتها أو رباها أو قيمها المنحرفة.

وأعلن ﷺ أمام الناس قرارًا حاسمًا لا يحتمل التردد فقال: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ ﷻ وربا الجاهليَّة موضوعٌ».

ولم تكن هذه الكلمات مجرد موعظة عابرة، وإنما كانت إعلانًا بأن الإسلام يقيم حياة جديدة تنفصل عن ظلم الماضي وعصبياته وأطماعه، وتعيد الإنسان إلى ميزان الحق والعدل والعبودية لله وحده.

ومن هنا، فإن المسلم لا يحمل معه إلى حياته الجديدة أحقاد الجاهلية أو تعصبها أو ظلمها، بل يبدأ صفحة تُبنى فيها العلاقات على الإيمان والرحمة والعدل والوفاء بحقوق الآخرين.

الذنوب طريق الهلاك

وحذّر النبي ﷺ أمته من الخطايا والآثام؛ لأنَّ الخطر على الإنسان لا يأتي دائمًا من عدو ظاهر، فقد تهدم الذنوب ما لا يستطيع أعداء الإنسان هدمه من داخله.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح في قول الله تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ) [الشورى: 30].

فالذنوب تترك أثرها في القلب والسلوك والحياة، وإذا شاعت في مجتمع ولم تجد توبة أو إصلاحًا، أضعفت بنيانه الأخلاقي وفتحت الطريق أمام الظلم والفساد والقطيعة.

كما بيّن النبي ﷺ أن الشيطان قد يبأس من إعادة المؤمنين إلى عبادة الأصنام بصورتها القديمة، لكنه لا يبأس من إغوائهم عبر الذنوب والمعاصي والانحرافات الصغيرة التي تتراكم حتى تفسد الإنسان.

ولهذا، فإن سلامة المجتمع تبدأ من سلامة الفرد، وتوبة الأمة تبدأ من توبة أبنائها، ومواجهة الفساد الكبير تبدأ بإغلاق أبواب المعصية التي يستهين بها الإنسان في حياته اليومية.

الأخوة وصيانة الحقوق

وجعل الإسلام الأخوة في الله قاعدة أساسية في بناء المجتمع، فقال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات: 10]، وهي أخوة تتجاوز المصالح والحدود والعصبيات

وقد أكد النبي ﷺ هذا المعنى في حجة الوداع فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! اسمعوا قولي، واعقلوه، تَعَلَّقِينَ: أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ؛ فَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَطْلُقَنَّ أَنْفُسُكُمْ».

ثم وضع ﷺ سياجًا عظيمًا يحمي المجتمع من الاعتداء فقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بِلَدِكُمْ هَذَا، حَتَّى تَلْقَوْا رَجُلًا فَيَسْأَلَكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ».

وهكذا ربط الإسلام الأخوة بحرمة الدم والمال والعرض، فلم يجعلها شعارًا عاطفيًا، بل جعل لها حقوقًا عملية تمنع الاعتداء والظلم وسفك الدماء وأكل أموال الناس بالباطل

ومن تمام هذا البناء أن يقف المجتمع إلى جانب الضعفاء، ولذلك جاءت الوصية بالمرأة ومن لا يملك القوة التي يدفع بها الظلم عن نفسه، حتى لا يتحول الضعف إلى باب للاستغلال والاعتداء

وأكد ﷺ الإحسان إلى النساء وحفظ حقوقهن وكرامتهن، فأنهى بذلك جانبًا من المظالم التي كانت سائدة في الجاهلية، ورسخ أن قوة المجتمع تقاس بقدرته على حماية أضعف أفراده

عدل الحاكم ومساواة الناس

ووضع النبي ﷺ قاعدة واضحة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، تقوم على السمع والطاعة في المعروف والالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا تكون الطاعة تفويضًا مطلقًا بعيدًا عن شرع الله

فالحاكم في التصور الإسلامي مؤتمن على تنفيذ الحق وإقامة العدل، وتكون طاعته مرتبطة بالمعروف، أما إذا أمر بمعصية أو مال عن شرع الله فلا تكون المعصية طريقًا للطاعة

وفي الوقت نفسه، هدم النبي ﷺ أسس التمييز العنصري والطبقي، وأعلن المساواة بين البشر بكلمات بقيت من أعظم المواثيق الأخلاقية في تاريخ الإنسانية

فقال ﷺ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لَأَعْجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَبْيَضٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى» النَّاسُ مِنَ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ».

وبذلك انتقل ميزان التفاضل من اللون والجنس والنسب والمال والوطن إلى ميزان أخلاقي وإيماني واحد هو التقوى، فلا يرتفع الإنسان عند الله بنسبه وإنما بصلاحه وعمله

وتصنع هذه القاعدة مجتمعًا لا يستعلي فيه غني على فقير، ولا عربي على أعجمي، ولا صاحب لون على صاحب لون، لأن الجميع ينتمون إلى أصل إنساني واحد ويقفون أمام ميزان واحد

الكتاب والسنة طريق النجاة

وحدد النبي ﷺ للأمة مصدر الهداية بعده، فلم يترك المسلمين بلا ميزان يرجعون إليه عندما تختلف الآراء أو تتغير الأحوال أو تتعدد المشكلات في الأزمنة المتعاقبة

فقال ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ؛ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي».

وهذه الوصية تضع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في قلب حياة المسلم، فلا يكون الرجوع إليهما مرتبطًا بعصر معين، وإنما يظلان أصلًا للهداية ومعياريًا للحق مهما تغيرت الظروف

ومن هنا، فإن التقدم الحضاري أو تغير الأعراف لا يلغي ثوابت الوحي، وإنما تحتاج الأمة في كل عصر إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله فهمًا صحيحًا ينزل الهداية على واقعها

كما أن النبي ﷺ لم يجعل رسالته حكرًا على قوم أو جيل، ولذلك تكرر في خطابه قوله: «أَيُّهَا النَّاسُ»، ليؤكد أن ما يحمله من هداية موجه إلى الإنسانية كلها

وكانت هذه العالمية امتدادًا لحقيقة بعثته ﷺ رحمة للعالمين، فلم يكن خطابه مقصورًا على الذين وقفوا أمامه في حجة الوداع، وإنما امتد صداه إلى كل جيل يأتي بعدهم ﷻ

وهكذا جمعت حجة الوداع منهج إصلاح كاملاً يبدأ من قلب الفرد بالتوبة، ويمر بصيانة الحقوق والأخوة والمساواة، وينتهي بمجتمع يحكمه العدل ويحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ

ويبقى هذا المنهج صالحًا لكل زمان؛ فالجاهلية قد تتغير أشكالها، والذنوب قد تتبدل صورها، والصراعات قد تتنوع أسبابها، لكن طريق النجاة يظل واحدًا: الاعتصام بالوحي، وإقامة العدل، وصيانة الحقوق، وتقوى الله ﷻ